مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية | المجلد06 / العـدد: 24(2022)، ص 85-100

ملامح عن أوضاع مصر السياسية خلال القرن 12هـ/18م (في ظل الحكم العثماني)

Features of the situation in Egypt during the 12th century AH 18th AD (Ottoman rule)

أحمد كرعي*
جامعة محمد بوضياف – المسيلة
ahmed.kerai@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: ...../...../..... **تاريخ القبول:** ...../...../.....

الملخص:

نعالج في هذا المقال ملامح عن الأوضـــاع الســـياســـية في مصـــر تحت الحكم العثماني قبل وأثناء القرن 12هـ/18م، مع التركيز على أحداث القرن 12هـ/18م، والتي كانت مضـطربة بسـبب الحكم الجائر للعثمانيين مما شـجع على الفوضـى والتناحر بين الأسـر النافذة من بقايا المماليك كالفقارية والغازدغلية والقاســـمية والتي أدت إلى ظهور حركات انفصـــالية وحروب أهلية كحركة إفرنج أحمد (1123هـ/1711م) وحركة علي بك الكبير (1182هـ/1768م) وحركة مراد بك وإبراهيم بك (1206هـ/1791م) مما سـهل من دخول مصـر تحت الحكم الأجنبي الأوربي الفرنسـي 1798، والإنجليزي 1801.

مع ذكر موقف الشعب المصري من تلك الأحداث بما يعرف بالمقاومة المصرية ضد الحكم التركي الجائر بقيادة العلماء الأزهريين.

كلمات مفتاحية: مصر القرن 18، الحركات الانفصالية في مصر، حسن باشا، مقاومة الشعب المصري.

Abstract:

In this article we deal with the features of the political situation in Egypt during the 12th century AH and the 18th AD during the Ottoman rule, with a focus on unstable events. This is what encouraged strife and rivalry between the ruling families and Mamaluks and faqaris and el gadolis and kassemia This is what led to the emergence of separatist movements and civil wars such as Ahmed Ifranj (1123 AH -1711 AD) And Ali Bec movement (1182 AH-1768 AD)and Murad Bec and Ibrahim Bec (1206 AH - 1791 AD) .

This is what facilitated and made Egypt come under the European-French foreign rule (1798, then the British rule 1801), while mentioning the position of the Egyptian people regarding these events, who knew the resistance against the Ottomans and scratched.

Keywords:

Egypt of eighteen century, Separatist movements in Egypt, Hassan Bash, The Egyptian resistance.

*كرعي أحمد

1. مقدمة:

لقد دخلت مصر تحت الحكم العثماني على إثر معركة الريدانية التي جرت بين السلطان العثماني سليم الأول وطومان باي حاكم مصر في 22 يناير (جانفي 1517م/923هـ) والتي انتصر فيها السلطان العثماني سليم، وأمر بقتل طومان باي في 13 أفريل 1517 على باب زويلة وعين خاير بك المملوكي واليا على مصر وقام بأسر الخليفة العباسي المتوكل على الله في إسطنبول وبقي هناك حتى وفاة السلطان سليم سنة 1520م/926هـ، ثم رجع إلى مصر حتى وافته المنية.

ولاشك أن الأتراك قد ساسوا البلاد وأداروها وفقا لمصالحهم الخاصة وأهملوا الرعية المصرية وعملوا على وجود فئة موالية لهم من الشعب تخدمهمّ ّإلى جانب المماليك تحت قيادة وال معين من الباب العالي.

وكان لهذه السياسة الجائرة رد فعل قوي من قبل الشعب المصري بقيادة العلماء الأزهريين.

ولذلك يمكن طرح التساؤلات التالية:

كيف كانت طبيعة السياسة العثمانية تجاه الشعب المصري وما هي أسسها؟ وما هي انعكاساتها ونتائجها على المصريين؟ وكيف كان رد الشعب المصري على هذه السياسة الجائرة التي أدت إلى دخول مصر تحت قبضة الاحتلال الأوروبي، الفرنسي سنة 1798 والانجليزي سنة 1801.

وللإجابة على هذه التساؤلات ارتأينا أن نقسم هذا المقال إلى العناصر التالية:

* حالة مصر السياسية قبل القرن 12هـ/18م (الإشارة إلى القوى المتصارعة، الوالي –العسكر– المماليك).

* أوضاع مصر السياسية أثناء القرن 12هـ/18م الإشارة إلى الصراع بين الأسر المملوكية المتنفذة وأدوارها: أ– حكم افرنج احمد (1708–1711)، ب– علي بك الكبير (1768–1773)، ج– محمد أبو الذهب (1773–1775)، د– إبراهيم بك ومراد بك (1776–1786)، هـ – حملة حسن باشا الجزايرلي، و– إسماعيل بك (1786–1791)، ز–إبراهيم بك ومراد بك (1791–1798).

* المقاومة – انتفاضات الشعب المصري.

2. الأوضاع السياسية في مصر قبل القرن 12هـ/18م

تمكنت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الأول من ضم بلاد الشام إثر معركة مرج دابق قرب حلب في 24 آب 1516م/ 922هـ، وزحف العثمانيون على مصر، عبر سيناء، واشتبكوا مع المماليك بقيادة طومان باي في معركة الريدانية 22 كانون الثاني/ جانفي 1517م/ 923هـ، وتمكنوا من دخول القاهرة، وسلبوا وقتلوا، وألقى سليم الأول القبض على طومان باي[1] أمر بقتله شنقا في 13 أفريل 1517م/ 923هـ، على باب زويلة.

وتحولت مصر إلى ولاية عثمانية وعيّن خاير بك المملوكي واليا على مصر، غادر السلطان سليم القاهرة في 10 سبتمبر 1517م/ 923هـ عائدا إلى إسطنبول وقام بأسر الخليفة العباسي المتوكل على الله في إسطنبول وبقي هناك حتى وفاة سليم سنة 1520م/ 927هـ، ثم رجع إلى مصر حتى وافته المنية.[2]

قام النظام الذي وضعه السلطان سليم الأول لمصر، على وجود ثلاث قوى تتصارع من أجل مصالحها مما يحقق أكبر ضمان للسيطرة.

---

[1] الخوند، مسعود-الموسوعة التاريخية الجغرافية- ج 18- (دط)- لبنان- بيروت-2004 –ص214.
[2] أحمد ياغي- إسماعيل- (دت)- العالم العربي في التاريخ الحديث- (ط1)- الرياض-مكتبة العبيدان-ص41.

القوة الأولى: هي الوالي، ووظيفته الأساسية هي إبلاغ الأوامر الواردة له من السلطان إلى سائر القطاعات الأخرى في الحكومة، وعليه مراقبة تنفيذها.

القوة الثانية: هي القوة العسكرية التي شكلها السلطان من ستة وجاقات (فرق) لهم قائد عام يقيم في القلعة، ولكل فرقة ستة ضباط، ومن هؤلاء الضباط جميعا شكل مجلسا أو ديوانا لمساعدة الوالي وإدارة شؤون البلاد، ولهذا الديوان الحق في معارضة مشروعات الوالي إذا لم يجد فيها مصلحة للبلاد.

القوة الثالثة: هي المماليك، وقد استعان بهم السلطان في تسيير دفة الأمور خارج العاصمة فعيّن على كل مديرية من المديريات الأربع والعشرين أحد بكوات المماليك وتعرف مديرياتهم بالسناجق.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني الذي خلف السلطان سليم في الحكم تم إضافة مجلسين آخرين، يعرفان بالديوان الأكبر الذي يجتمع لمناقشة الأمور الخطيرة للبلاد، ويتشكل من الضباط والعلماء، أما الثاني فهو الديوان الأصغر، وهو يجتمع يوميا ولا يضم العلماء ونحوهم.

كما أضاف تعديلات أخرى جوهرية منها: أنه أباح للمماليك الترقيّ إلى مناصب عليا للحكومة حتى رتبة الباشاوية، وأهم هذه التعديلات والتي ظهر أثرها فيما بعد: إجازته للمماليك بتأليف وجاق (فرقة) سابع من بقايا جيوشه تنضم إلى الوجاقات الستة من الإنكشارية، فصارت هذه الفرقة أقوى الوجاقات، وزاد بها نفوذ المماليك مما مكنهم من إثارة الفتن في البلاد ومناوأة الوالي[3]. وخاصة في نهاية القرن السادس عشر، حيث صار بكوات المماليك القوة السياسية المسيطرة على مصر.

وتركزت السلطة المدنية والعسكرية في أيديهم وصار لزعيمهم، وهو شيخ البلد نفوذ واسع، كما صارت مشيخة البلد بمثابة إمارة في مصر، ونتيجة لذلك تصدع نظام الحكم الذي وضعه العثمانيون في مصر.[4]

فعلى سبيل المثال، في أواخر القرن السادس عشر، حدث في عهد محمد باشا الشريف في 30 ماي 1596م/ 1005هـ-يوليو 1598م/ 1007ه، أن هجم الجند عليه ومن معه وهو في نزهة وفرقوا من معه من جند وطلبوا منه الاحتكام إلى الشرع الشريف أمام قاضي العسكر، ولكنه فرّ منهم إلى القلعة.

أما في عهد حضر باشا 1 يوليو 1598/ 1007هـ- يوليو 1601م/ 1010ه، زاد تمرد الجند عليه عندما عمل على تنظيم القمح الذي تقدمه الدولة للعلماء بعد أن فسد نظام توزيعه، فأجبر الجند المتمردون قاضي العسكر على الذهاب معهم إلى الديوان لتقديم مطالبهم وتحقيقها وقد بلغ عنف العسكر منتهاه في عهد إبراهيم باشا المقتول من 4 مايو 1604/ 1013ه إلى 08 سبتمبر 1604/ 1013ه، فعندما خرج في وفاء النيل لقطع جسر أبي المنجا، اعترضوه وأحاطوا به فقطعوا رأسه على باب زويلة، وكان ذلك في منتهى التجبر منهم لأنها المرة الأولى التي يقتل فيها ممثل السلطان.

وبعد مقتل إبراهيم باشا، نتج فراغ سياسي في البلاد عن مقتله وهو الحاكم الشرعي المعيّن على البلاد، فولى الجند المتمردون قاضي العسكر مصطفى أفندي عزمي قائمقاما (انظر التعليق رقم: 1) على البلاد ذلك للمكانة السياسية التي كان يتمتع بها قاضي العسكر آنذاك.

---

[3] الأنصاري، ناصر-المجمل في تاريخ مصر (النظم السياسية والإدارية)- (دط)- القاهرة- دار الشروق-1993-ص

[4] عمر عبد العزيز دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر-(دط)-دار المعرفة الجامعية-1989-ص151.

وكذلك قصد إسباغ الشرعية بتوليته، ويرجع عدم اختيار أحد من قادتهم حفاظا على البلاد من الفتن، وبصفته ممثل السلطان، بعد مقتل الباشا استمر قاضي عسكر يحكم البلاد مدة شهرين حتى وصل الباشا الجديد من جانب السلطة، واستمرت ضده الفتنة حتى مجيء محمد باشا (محطم العبيد) (14 يونيو 1607/ 1016هـ-12 يوليو 1611م/ 1020هـ) الذي نجح في القضاء على الفتنة في موقعة الخانقاه سنة 1609م/ 1018هـ، حيث هزم المتمردين وفتك بالعبيد من أفرادهم.

ظل بكوات المماليك القوة السياسية المسيطرة على مصر خلال القرن السابع عشر، وبقيت السلطة المدنية والعسكرية في أيديهم، وازداد لزعيمهم شيخ البلد نفوذ واسع، كما بقيت مشيخة البلد بمثابة إمارة في مصر.

وقد شهد القرن الثامن عشر تزايدا كبيرا في سلطة بكوات المماليك فكانوا يمتنعون عن إرسال الجزية إلى السلطان ويعزلون الوالي إذا غضبوا عليه، وأصبح الوالي اسما ورمزا لا حقيقة لحكمه ولا هيبة، ورغم هذه القوة والسيادة التي أحرزها المماليك في داخل المجتمع المصري، فإنهم لم يتمكنوا من الانفصال عن الدولة العثمانية بسبب انقسامهم وتطاحنهم وتنافسهم في شوارع القاهرة وفي قرى مصر.

باستثناء فترة أحد البكوات وهو علي بك الكبير (1768-1773/ 1182-1187هـ)، (انظر التعليق رقم: 2) الذي حاول الاستقلال بمصر، ولكن الدولة العثمانية أوقعت بينه وبين قائد قواته وهو محمد أبو الذهب، وانقض على سيده وهزمه ولكن أبا الذهب لم يستقر في حكم مصر لفترة طويلة إذ مات في عام 1775م/ 1189هـ، وخلص الأمر في النهاية لمراد وإبراهيم اللّذين عاثا في مصر فسادا[5]، كما سيأتي.

3. حالة مصر السياسية أثناء القرن (12هـ/ 18م):

لقد تميّزت الحياة السياسية الداخلية في مصر خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، ومنذ بدايته بالصراع والتنافس على الحكم بين الفرق العسكرية المختلفة تعضدها العائلات النافذة والقوية خاصة عائلتا الفقارية (نسبة إلى ذو الفقار بك) والقاسمية (نسبة إلى قاسم بك)، واللتان كانتا تتنافسان على الحكم منذ فترة السلطان العثماني أحمد بن محمد (1115-1143هـ/ 1703-1730م)، بمثابة حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية نسبة إلى قاسم بك، والفقارية نسبة إلى ذي الفقار بك. أما أصل هذين الحزبين ففيه أقوال منها: أنهما ينسبان إلى أخوين قاسم بك وذو الفقار بك، لدى "ستوذون" أحد أمراء المماليك في عهد السلطان سليم الأول الذي نشطهما ونشط أحزابهما. وبعضهم يقول إن هذين الحزبين ينسبان إلى قاسم عيواظ بك "دفتردار"، وذي الفقار بك الكبير سنة 1050هـ/ 1640م. وكان قاسم عيواظ رئيس الطائفة القاسمية، وذو الفقار رئيس الطائفة الفقارية، وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب خاصة بهما.

فكانت "الفقارية" توصف بالكثرة والسخاء، والقاسمية بالثروة والبخل، وراية الفقارية علم أبيض مزاريقه رمانة، أما القاسمية فلها علم أحمر.

وكانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام، فلما جاء خشي من اتحادهما، فعمد إلى الدسائس، وأوقع بينهما الشقاق، فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوما.[6].

ويمكن أن نركّز على ست محطات تاريخية ميزت أحداثا هامة في تاريخ مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي الثاني عشر الهجري، هذه المحطات هي:

---

[5] عمر عبد العزيز دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر-(دط)-دار المعرفة الجامعية-1989-ص151

[6] زيدان، جورجي-مصر العثمانية- تحقيق محمد حرب-(دط)-الإسكندرية-دار الهلال-1994-ص207.

1-فتنة إفرنج أحمد (1708-1711م / 1120-1123ه).

2-حركة علي بك الكبير (1768-1773م/ 1182-1187ه).

3-محمد أبو الذهب (1773-1776م / 1187-1190ه).

4-مراد بك وإبراهيم بك (1776-1786م / 1190-1201ه).

5- حملة حسن باشا الجزايرلي (1786م-1201ه).

6-إسماعيل بك (1786-1791م / 1201-1206ه).

7-عودة مراد بك وإبراهيم بك (1791-1798م / 1206-1213ه).

1.3 فتنة إفرنج أحمد (1708-1711م/ 1120-1123ه):

ظل أوجاق (انظر التعليق رقم: 3) الإنكشارية مصدرا للاضطرابات والفوضى التي سادت في مصر قبل القرن الثامن عشر الميلادي، حيث سيطر كوجك محمد على مقر قيادة الإنكشارية، ولم يستمر ذلك طويلا إذ ظهر له منافس خطير وهو مصطفى الغازدوغلي (مؤسس بيت الغازدوغلية) الذي كان سرّاجا (انظر التعليق رقم: 4) عند حسن آغا، ثم رقاه حتى تقلد منصب كتخدا (انظر التعليق رقم: 5) الإنكشارية وتمكن مصطفى من اغتيال كوجك محمد في سبتمبر عام 1694م/1106ه، فحكم البلاد إلى أواخر سبتمبر 1697م/1109ه. حيث اجتمع الإنكشارية وأرغموا الوالي على النزول عن السلطة، واختاروا قائمقاما بدلا عنه ثم تحفظوا عليه، وأصبح أحمد آغا الإنكشارية هو المسيطر على الأحوال في مصر.

وفي عام 1708م/1120ه، كان قائد آخر من قُواد نفس الأوجاق هو علي آغا الانكشارية تولّى السلطة في مصر وبعد ذلك بحوالي أربع سنوات بدأت فترة طويلة من التوتر، انتهت بقيام الثورة الكبرى عام 1711م/1123ه[7].

حدثت تطورات داخل أوجاق الإنكشارية في خلال الفترة بين 1696م/ 1108ه و1708م/ 1120ه، تمخض عنها ظهور شخصية نافذة جديدة إفرنج أحمد باش أوده باشي (انظر التعليق رقم: 6). ليتسلط على هذا الأوجاق، خاصة بعد وفاة مصطفى كاتخدا الغازدوغلي وامتدت دائرة الخلاف إلى بقية الأوجاقات الأخرى، فقد طالب أوجاقات السباهية (انظر التعليق رقم: 7) بالحاق إفرنج أحمد وزميله في صفوفها، وساندتها في ذلك أوجاقات عزبان (انظر التعليق رقم: 8). والمتفرقة (انظر التعليق رقم: 9). والجاوشية (انظر التعليق رقم: 10)، وبذلك صارت الستة في جانب وأوجاق الإنكشارية في جانب آخر وبدأت مقدمات هذه الفتنة في عام 1707م/ 1119ه، وانفجر الموقف في سنة 1711م/ 1123ه.

وقد كان احتدام النزاع بين أوجاق الإنكشارية والعزبان وارتبط بهذه المعارك خلافات أخرى بين البكوات الفقارية والقاسمية، وكان من نتائجها الإخلال بالتوازن الذي كان دعامة السلام في القاهرة، وانتهت الفتنة باشتراك كل طبقات السكان بما فيها العلماء والبدو، وكان الفريقان كالآتي:

أ- الفريق القاسمي (العزبان): ويضم زعماء القاسمية-إيواظ بك أمير الحج وإبراهيم بك أبو شنب وقانصو بك، وقيطاس بك الدفتردار (انظر التعليق رقم: 11)، وتابعة محمد بك الصغير رجال أوجاقات السباهية الثلاثة وعربان السلالمة والهنادي.

---

[7] عمر عبد العزيز- دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر-(دط)- دار المعرفة الجامعية-1989-ص112.

ب- فريق إفرنج أحمد: مسبب الفتنة: يضم زعماء الفقارية أيوب بك، محمد بك جورجا، أعراب السباهية، آغا المتفرقة، كتخدا الجاوشية مؤيدي إفرنج أحمد من الانكشارية، الباشا العثماني قاضي العسكرية عزبان الهوارة وعربان أولاد حبيب، استمر القتال أكثر من شهرين، وقام الفريق المناوئ لإفرنج أحمد-الفريق القاسمي غزبان بعزل الباشا، وعينوا قائمقاما، كما عزلوا قاضي العسكر وعينوا آخر ليحل محله[8].

وفي مارس 1711م/ 1123هـ، تآمر خصوم أحمد إفرنج مع جماعة الغازدوغلية على طرده وحصلوا أيضا على تأييد الأوجاقات الستة الأخرى وخصوصا أوجاق العزبان الذي كان يعارض بشدة سيطرة الإنكشارية.

ولقد تورط الباكوات وبيوتاتهم المملوكية في هذا الصراع الدائر، فتدخل أيوب بك الذي تحالف مع الفقارية لمساندة إفرنج أحمد رغم الروابط الموجودة بين الفقارية والغازدوغلية، كما ألقى أكابر القاسمية بكل ثقلهم لتأييد العزبان ضد إفرنج أحمد وأيوب بك والوالي، وأوقفت القاسمية الوالي عن عمله وعينت أحدا من أفرادها كقائمقام.

وفي 22 أفريل 1711م/ 1123هـ، حدثت معركة خارج القاهرة، قتل فيها ايواظ بك، أحد زعماء القاسمية وكانت وفاته حدثا مهما في تاريخ العلاقات بين فرقتي الفقارية والقاسمية، فازدادت العداوة بينهما وحاول كل منهما القضاء على الآخر نهائيا، وفشلت الفقارية وهرب أيوب بك إلى سورية ومنها إلى إسطنبول، حيث توفي بعد سنة أما إفرنج أحمد فقد قبض عليه وأعدم.

وبرهنت هذه الحرب على ازدياد نفوذ البكوات المماليك في أحداث مصر السياسية، فمنذ ذلك الوقت أصبح صراع الأوجاقات السبعة غير ذي أهمية إذا قورن بالصراع العنيف الذي ميّز العلاقات بين بكوات القاسمية والفقارية، وبيوتاتهم المملوكية.

كما أصبح الولاة العثمانيون مجرد رؤساء صوريين وعرضة للعزل إذا ما ضايقوا الفئة المملوكية المسيطرة، وكان هدف المماليك هو الوصول إلى الحكم (الرئاسة)، ومنذ قيام الثورة الكبرى 1711م/ 1123هـ إلى مجيء نابليون بونابرت 1798م/ 1213هـ، إلى مصر سيطر على تاريخ مصر مسألتان هما، الصراع بين الأحزاب والصراع بين الأشخاص في داخل كل حزب على الرئاسة، وقد مهدت الثورة الكبرى الطريق أمام القاسمية لكي تعمل على زيادة نفوذها في مصر[9].

2.3 حركة علي بك الكبير 1768-1773م/ 1182-1187هـ

استطاع علي بك الوصول إلى مشيخة البلد في عام 1763م/ 1177هـ، ولم يكد يستمتع بهذا المنصب قليلا، حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار مرتين من مصر خلال أربع سنوات فأقام في الحجاز تارة وفي فلسطين، حيث استضافه ظاهر العمر تارة أخرى، وعاد إلى القاهرة في 1766م/ 1180هـ، فانتقم من أعدائه وأنزل بهم عقابا صارما باستخدام أحد مماليكه الذي اشتهر فيما بعد باسم (أحمد الجزار) بسبب ما أظهره من قسوة وبطش عند إخماد ثورة عربان الحبابية بشرق الدلتا ووسطها والهنادي بإقليم البحيرة، ولذلك تمكن من أن يصير باشا على عكا فيما بعد.

[8] البكري الصديقي-محمد بن سرور - النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر القاهرة المعزية- دراسة وتحقيق وتعليق عبد الرازق عبد الرازق عيسى-(دط)-القاهرة-العربي للنشر والتوزيع-1998-ص20.

[9] عمر عبد العزيز، (1989)، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، (دط)، دار المعرفة الجامعية-1989-ص48.

وكان سويلم زعيم الحبابية والهنادي بالوجه البحري قد طغى وتجبر ونشر نفوذه بمعظم بلاد الشرقية والقليوبية، وتحكم في الطريق بين القاهرة والموانئ الشمالية، ومارس القرصنة النيلية على نطاق واسع ولذلك أرسل علي بك حملتين للقضاء عليهم فقبضوا على سويلم وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح، ثم علّقوها على باب زويلة بالقاهرة.

وبعد أن انتهى من الوجه البحري تطلع علي بك لتحرير الوجه القبلي الذي كان يمد القاهرة بالمؤن والغلال من يد همام بن يوسف شيخ عربان الهوارة،[10] والذي كان يحمي المماليك الفارين للصعيد في أعقاب صراعاتهم المسلحة عن السلطة في القاهرة ويقدم لهم المال والرجال والعتاد والسلاح، فأرسل علي بك إلى الصعيد حملة بقيادة أحد مماليكه، وهو محمد بك أبو الذهب (انظر التعليق رقم: 12)، لقتال همام، وانتصر عليه خارج أسيوط وفرت فلول المهزومين إلى فرشوط واستطاع أبو الذهب أن يكسب ود ابن عم همام المدعو أبو عبد الله الذي وعده بحكم الصعيد فصدّق أبو عبد الله هذا الوعد ورفض مواصلة القتال، فمات همام حزنا وكمدا قرب إسنا فانتصر أبو الذهب نهائيا، وأصبح علي بك سيد الوجهين البحري والقبلي وصاحب النفوذ المطلق في جميع أنحاء القطر المصري.

وما كاد ينتهي علي بك من توطيد نفوذه في مصر حتى قامت الحرب الروسية العثمانية 1768م-1774م/ 1182-1188هـ، حيث انتصرت روسيا وطردت الأتراك من الدانوب والقرم والأفلاق والبغدان والصرب، وخرج الأسطول الروسي من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط وهاجم بلاد الأناضول وسوريا، وهدد مصر نفسها، فاستغل علي بك فرصة الحرب، وضعف الدولة العثمانية فطرد الباشا العثماني محمد راقم وامتنع عن دفع الجزية والمال الميري، ثم طمع في نشر سلطانه على بلاد العرب أملا في أن يتخذ من جدّة مقر التجارة للهند حتى تتحول تجارة الشرق إلى البحر الأحمر وبرزخ السويس[11].

ونجحت الحملة التي أرسلها إلى الحجاز بقيادة مملوكه محمد بك أبو الذهب ومد علي بك سلطانه إلى الحجاز، ثم أرسل حملة إلى بلاد الشام، حيث وعد بنجدة حليفه الشيخ ظاهر العمر واستغل فرصة روسيا من جهة، وفرصة تذمر أهل الشام من عثمان بك العظم الوالي العثماني وإقبال هذا الوالي على تشجيع خصوم علي بك وأعدائه والترحيب بهم، عند خروجهم إلى دمشق، ذريعة لغزو الديار الشامية.

واستطاع محمد أبو الذهب بمعاونة صديقه ظاهر العمر أن يستولي على غزة ونابلس ويافا، والرملة وصيدا، واللد ودمشق ذاتها في أفريل 1771م/ 1185هـ.

وفي أثناء هذه الحملة كان علي بك جادا في عقد التحالفات مع روسيا والبندقية حيث لقي تأييدا من الكونت ألكسي أورلوف (Alexei Orlov) قائد الأسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط قصد تزويده بالمؤن والمدافع والمهندسين، فوعده بحمل مقترحاته إلى كاترين قيصرة روسيا، ولكن خيانة أبو الذهب واتهامه بالكفر والإلحاد، واتهامه ببيع بلاد العرب للكفرة ولذلك غدر به أبو الذهب وجهز جيشا لمقابلته بالقرب من الصالحية حيث دارت معارك عنيفة أسر على إثرها علي بك الكبير على يد أبي الذهب ومات بعد ذلك بأيام معدودة في 8 ماي 1773م/ 1187هـ رحمه الله[12]. ويرجع السبب الرئيس لعدم نجاح علي بك الكبير، هو تغافله عن القوة الشعبية المصرية، إذ لم يستغل فرصة كراهية الشعب

---

[10] يحيى، جلال، (دت)، مصر الحديثة، 1517م، 1805م، (د.ط)، الإسكندرية، منشأة المعارف-ص237.
[11] أحمد ياغي، إسماعيل، (دت)، العالم العربي في التاريخ الحديث، (ط1)، الرياض، مكتبة العبيدان-ص131.
[12] ابن المقفع، ساوريس- (حاشية) تاريخ مصر منذ البداية-المجلد2-الجزء2- تحقيق عبد العزيز جمال الدين- (دط)- مصر- مطبعة مدبولي-2006-ص1143.

للمماليك، فيحشد تلك الطاقة الجبارة للتخلص من هؤلاء المماليك العتاة، وإنما اعتمد على حزبه من المماليك، وحارب في عديد من الجبهات، أخطرها جبهة المماليك نفسها، والمؤامرات المستمرة التي لا تنقطع في داخلها، فضرب من داخل جبهته قبل أن يضرب من العدو العثماني[13].

3.3 حكم محمد أبو الذهب 1773–1775م/ 1187–1189هـ:

لما تولى محمد أبو الذهب شؤون مصر خالف أستاذه علي بك وضم المشردين وغمرهم بالإحسان واستمال بواقي أركان الدولة واستلين الجميع جانبه وجنحوا إليه وأحبوه وأعانوه وقاتلوا بين يديه حتى أزاحوا علي بك وخرج هاربا من مصر إلى الشام واستقر بمصر وساس الأمور وقلد المناصب وجبى الأموال والغلال، وراسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة وقلد مملوكه إبراهيم بك إمارة الحج في تلك السنة 1189هـ، 4 مارس 1775م وصرف العلائف وعوائد العربان وأرسل الغلال للحرمين والصرر، وتحرك علي بك للرجوع إلى مصر فدبّر له حيلة بأن جمع القراصنة والذين يظن فيهم النفاق وأسرّ إليهم أن يراسلوا علي بك ويستعجلوه في الحضور وينمقوا مساوئ المترجم أبو الذهب ومنفراته ويعيدوه بالمخامر معه، والقيام بنصرته متى حضر وأرسلوا إليه بالشرطة السرية، فراج عليه ذلك واعتقد صحته.

وأرسل إليهم بالجوابات وأعادوا له الرسالة كذلك باطلاع مخدومهم وإشارته، فعند ذلك قوي عزم علي بك على الحضور وأقبل بجنوده إلى جهة الديار المصرية، فخرج المترجم ولاقاه بالصالحية وأحضره أسيرا، ومات بعد أيام قليلة، وانقضى أمره، وجمع باقي الأمراء المطرودين والمشردين وأكرمهم واستخدمهم وواساهم واستوزرهم وقلدهم المناصب وردّ إليهم بلادهم وعوائدهم واستعبدهم بالإحسان والعطايا واستبدل لهم العز بعد الذل والهوان وراحة الأوطان وقام بمجهودات جبارة، فأمنت السبل ووصلت إليه مجلوبات من الجهات القبلية والبحرية بالتجارات والمبيعات.

ونزل خليل باشا وطلع إلى القلعة على العادة القديمة وحضر للمترجم من الدولة الرسومات والخطايات، وانفرد بإمارة مصر واستقام أمره وأهمل أمر أستاذه أتباع علي بك وأتباعه، وحضر إلى مصر مصطفى باشا النابلسي من أولاد العظم، والتجأ إليه فأكرم نزله ووصلت إليه التقاليد والداقم، في ربيع الثاني سنة 1188هـ/ جويلية 1774م ووّجه خليل باشا إلى ولاية جدّة، وسافر من القلزم في جمادى الثانية 1188هـ/ جويلية 1774م وشرع في بناء مدرسة تجاه الجامع الأزهر[14].

يقول عنه الجبرتي: "وبالجملة فإن المترجم كان آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصرامة وسعدا، وحزما وعزما وحكما وسماحة وحلما، وكان قريبا للخير، يحب العلماء والصلحاء، ويميل بطبعه إليهم ويعتقد فيهم ويعظمهم وينصت لكلامهم ويعطيهم العطايا الجزيلة ويكره المخالفين للدّين ولم يشهر عنه شيء من الموبقات والحرمات"[15].

توفي في عكا في ربيع الثاني 1189هـ- جويلية 1775م ولما ورد الخبر بموته وشاع في الناس وصاروا يتعجبون ويتلون قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ" (سورة الأنعام، الآية رقم 44)، وذلك أنه لما تم له الأمر وملك البلاد المصرية والشامية، وأذعن الجميع لطاعته وقد كان أرسل إسماعيل آغا أخا علي بك الغزاوي إلى إسطنبول يطلب أمرية مصر والشام، وأرسل صحبته أموالا وهدايا فأجيب إلى ذلك وأعطوه التقاليد والخلع والبرق والداقم وأرسل له المراسلات والبشائر بتمام الأمر، فوفاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلأ فرحا وحمّ بدنه في الحال لمدة ثلاثة أيام.

---

[13] شيال، جمال الدين- الحركة الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث، مصر والشام- 2ج- (دط)-بور سعيدن مكتبة الثقافة الدينية-2001-ص22.
[14] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دت)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج1، (دط)، بيروت، دار الجيل-ص482
[15] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع -ص485

ومات ليلة الثامن ربيع الثاني (8 ربيع الثاني 1189ه يونيو 1775م) فاتفق أتباعه على الرحيل وأخذوا أرملة سيدهم صحبتهم، لما تحقق عندهم أنهم إن دفنوه هناك في بعض المواضع أخرجه أهل البلاد ونبشوه وأحرقوه، فغسلوه وكفّنوه وألقوه في المشمعات ووضعوه في عربة وارتحلوا به طالبين الديار المصرية، فوصلوا في ستة عشر يوما ليلة الرابع والعشرين من شهر ربيع الثاني، أواخر النهار، 24 ربيع الثاني 1189ه، جويلية 1775م، فأرادوا دفنه بالقرافة وحضر الشيخ الصعيدي فأشار بدفنه في مدرسته تجاه الأزهر فحفروا له قبرا في الليوان الصغير الشرقي.

ولما أصبح النهار عملوا له مشهدا، وخرجوا بجنازته من بيته الذي بقصون، ومشى أمامه المشايخ والعلماء والأمراء وجميع الأحزاب والأوراد، وأطفال المكاتب وأمام نعشه مجامر العنبر والعود، سترا على رائحته ونتنه، حتى وصلوا به إلى مدفنه وختموا عليه القرآن وجروا عليه صدقات عدة ليال وأيام نحو أربعين يوما واستقر أتباعه أمراء مصر ورئيسهم إبراهيم بك ومراد بك وباقيهم الذّين أمّرهم في حياته.

4.3 حكم إبراهيم بك ومراد بك (1776–1786/ 1190–1201ه):

إثر وفاة أبي الذهب عمّت الاضطرابات والفوضى والمنازعات الداخلية بين أتباعه وأتباع علي بك الكبير، للحصول على المشيخة والاستبداد بحكومة البلاد، ولما انسحب أتباع علي بك إلى أسوان اندلعت المنافسة من جديد بين إبراهيم بك ومراد بك، حتى أصبحت القاهرة بين عامي 1773–1789م–1187–1204ه مسرحا للمؤامرات والدسائس، والسلب والنهب والفوض[16].

ودخلت مصر فتنة سياسية بين أفراد الغازدوغلية على الرياسة وقام التنافس بين إسماعيل بك وبين اثنين من مماليك أبي الذهب وهما إبراهيم بك ومراد بك، لكنهما أطاحا بإسماعيل بك واتفقا الاثنان على أن يتقاسما السلطة في مصر على أن يكون الأول شيخا للبلد وبذلك استقرت لهما الأمور في عامي (1775–1776م/ 1189–1190ه) وحاول إسماعيل بك إزاحتهما لكنه فشل في سنة 1776م/ 1190ه[17].

وظل مراد وإبراهيم يحكمان البلاد ويعيثان فيها فسادا، إلى أن أرسل السلطان العثماني حملة عسكرية بقيادة القبطان حسن باشا سنة 1786م/ 1201ه.

5.3. حملة حسن باشا الجزايرلي (1786م–1201ه).

لم تقتصر مظالم إبراهيم بك ومراد بك على الأهالي، بل امتدت إلى الأجانب المقيمين في مصر بابتزاز أموالهم ومصادرة متاجرهم، ووصل بهم الأمر إلى نقض اتفاقهم مع فرنسا بل أنهم هددوا بهدم الكنائس الخاصة بالأجانب، الأمر الذي أدى إلى احتجاج سفراء وممثلي فرنسا والنمسا وهولندا لدى الدولة العثمانية، بالإضافة إلى ذلك فإنهما (مراد بك وإبراهيم بك)، قد اتصلا بروسيا وشجعتهما على هذا العمل تمهيدا للانفصال عن الدولة العثمانية.

ولذلك قررت الدولة العثمانية إرسال حملة عسكرية بقيادة حسن باشا الجزايرلي في ماي 1786م–1200ه، واستطاع أن يلحق الهزيمة بهما، ففرا إلى الصعيد، لكن لم يستطع حسن باشا إخضاع الصعيد ولم يكن الموقف الدولي في صالح الدولة العثمانية، إذ قامت حرب بينها وبين روسيا فاستدعي سنة 1787م/ 1202ه للاشتراك في الحرب[18].

---

[16] ابن المقفع، ساوريس- (حاشية) تاريخ مصر منذ البداية-المجلد2-الجزء2- تحقيق عبد العزيز جمال الدين- (دط)- مصر- مطبعة مدبولي-2006-ص1146

[17] عمر عبد العزيز-دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر-(دط)- دار المعرفة الجامعية-1989-ص150

[18] هويدي، صلاح أحمد- دور الصعيد في مصر العثمانية، 923-1213ه/ 1517-1798م- (دط)-دار المعارف-1984-ص237.

سيطر حسن باشا على القاهرة ومصر السفلى وظلّ إبراهيم ومراد يحكمان الصعيد ويتحينان الفرصة للعودة إلى القاهرة، ودارت الحرب بينهما في عدة مواضع على طول الوادي (وادي النيل)، وفي نوفمبر 1786م/ 1201هـ، حاول حسن باشا أن ينهي هذا الصراع بالمفاوضات، فعرض على إبراهيم ومراد الأمان ووعدهما بمنحهما إقطاعات في أي مكان يريدان خارج مصر، فرفضاها وعين خصمهما إسماعيل بك شيخا للبلد[19].

6.3. حكم إسماعيل بك (1786–1791م/ 1201–1206هـ):

لقد قام حسن باشا بتعيين إسماعيل بك شيخا للبلد سنة 1786م-1191هـ، وأصل إسماعيل بك من مماليك إبراهيم كتخدا، وانضوى إلى علي بك الكبير– بلوط قوبان، فجعله مستشاره، وأقره ونوه بشأنه وقلده الصنجقية (انظر التعليق رقم: 13)، بعد موت سيدهم وزوجه بهانم ابنة إبراهيم كتخدا وعمل لهما حفلا عظيما ببركة الفيل دام شهرا كاملا في سنة 1174هـ (أوغسطس 1761م) وأرسله علي بك في سرياته، واعتمده في مهامه وبعثه إلى سويلم بن حبيب بتجريدة فلم يزل يحارب حتى هزمه، وفرّ إلى البحيرة فلحقه هناك، فقتله وحضر برأسه إلى مخدومه، وذلك في أواخر 1182هـ، ماي 1769م، وسافر إلى الشام صحبة محمد بك أبي الذهب، لمقاتلة عثمان باشا بن العظم، وأغاروا على البلاد الشامية، وحاربوا على يافا أربعة أشهر، حتى ملكوها وسافر قبل ذلك في تجاريد للصعيد، وحضر غالب مواقف الحرب مع محمد بك إلى أن بدأت الوحشة بين محمد بك وسيده علي بك، وخرج مع محمد بك إلى الصعيد وجرى بينهما الدم بقتله أيوب بك، فأخرج إليه علي بك جردة عظيمة، احتفل بها احتفالا زائدا وأميرها إسماعيل بك وانضم إلى محمد بك فشد عضده ، وخان مخدومه وتقلد الدفترداية، وأميرا للحج سنتين.

ولما مات محمد بك، لم تطمع نفسه للقدر في الرياسة والإمارة، بل تركها لأتباعه وقنع بحاله وإقطاعه ولزم داره التي عمّرها بالأزبكية فناكدوه وطمعوا في ما لديه وقصد مراد بك اغتياله فخرج إلى الخارج وتبعه المغرضون له، يوسف بك وغيره، فهاجر إلى الشام ثم سافر إلى الروم وذهب إلى اسطنبول، وأقام بها مدة ثم نفوه إلى شنق قلعة، وخرج منها بحيلة تحيلها على حاكمها ثم ركب البحر نحو درنة، ووصل خبره إلى الأمراء بمصر، وأقام على ذلك شهورا فلم يقفوا له على خبر وهو ينتقل عند العربان حتى أنه اختفى عند بعضهم نيفا وأربعين يوما في مغارة .

ووصل إلى البلاد القبلية بحيلة في زي العربان، ورجع إلى مصر وتملكها واستقل بإمارتها بعد تغربه تسع سنين، وبنى داره وحصن المدينة وسورها من عند طرا والجيزة، وحصنها تحصينا عظيما من الجبل إلى البحر من الجهتين، حتى أنه لما أصيب بمرض الطاعون أحضر أمراءه وقال لعثمان بك طبل بحضرتهم: "أنت كبير القوم الباقية فافتح عينك وشد حيلك فإني حصّنت لكم البلد وصيرتها بحيث لو ملكتها امرأة لم يقدر عليها عدو" وتمرض يومين، ومات في السادس عشر شعبان من سنة 1205هـ، أفريل 1791م[20].

يقول عنه الجبرتي: "كان أميرا جليلا كفؤا للإمارة جهوري الصوت، عظيم الهمة، بعيد الغور كبير التدبير، يحب الصلحاء والعلماء، ويتأدب معهم ويواسيهم، ويقبل شفاعتهم ويكرمهم، وله فيهم اعتقاد حسن ولما مات غسل وكفن وصلي عليه في مصلى المؤمنين، ودفن بقرب علي بك مع سيدهما إبراهيم كتخدا، بالقرب من ضريح الإمام الشافعي بالقرافة، ولم يفلح بعده خليله عثمان بك أضاع مملكته وسلمها وأخصام سيده".[21].

7.3. حكم مراد بك وإبراهيم بك 1791–1798م/ 1206–1213هـ:

[19] عمر عبد العزيز-نفس المرجع -1989-ص150
[20] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص335
[21] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص336

عندما عاد مراد بك وإبراهيم بك أو المملوكان الكافران كما سماهما حسن باشا إلى حكم مصر واستمرا حتى جاءت الحملة الفرنسية سنة 1798م/ 1213ه، ازدادت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية سوءا، وكثرت الفتن والاضطرابات تفشت الأوبئة والأمراض وانتشرت المجاعات فانخفض النيل مرات عدة، بسبب الجفاف.

فحدثت الأزمات بسبب انصراف الفلاحين عن أراضيهم، وذلك لنهب البكوات للغلات.

وتأثر أصحاب المتاجر من الأجانب خاصة الانجليز والفرنسيين، والبنادقة الذين أقاموا بالإسكندرية والقاهرة للتجارة، حيث صاروا يعانون الشيء الكثير من تعسف المماليك بكثرة الضرائب فوجد "شارل مجالون" (Charles Magallon)، الذي عينته حكومة المؤتمر قنصلا عاما في مصر منذ 1793م/ 1208ه، صعوبة كبيرة في الإقامة بالبلاد من غير دفع الإتاوة السنوية للمماليك.

وفي أفريل 1794م/ 1209ه، أرغم إبراهيم بك التجار الأجانب على دفع أربعة عشر ألف ريال اسباني، واستولى مراد بك على قدر كبير من البضائع وتعرضت مخازن التجار إلى الإغلاق في القاهرة بالقوة، فاضطروا إلى الانسحاب نحو الإسكندرية، فخرج خمسة منهم إلى مدينة الرشيد فقبض عليهم مراد بك وأرغمهم على العودة.

فظل التجار بالقاهرة تحت رقابة إبراهيم الصارمة مدة ثلاثة أشهر، حتى أذن لهم البكوات بالذهاب إلى الإسكندرية فبلغوها في أفريل 1795م/ 1210ه، وكان على رأس المحتسبين شارل مجالون نفسه.

وعلى الرغم من الأموال الطائلة التي ابتزها بكوات المالية بشتى الطرق والأساليب من الأهالي والأجانب على السواء، إلا أنهم لم يعوا بتدبير أمور البلاد والتي سيطروا على حكومتها فأهملوا شؤون الري مما أدى إلى طغيان رمال الصحراء على الترع والقنوات وإتلاف الأراضي الزراعية، فضلا عن ذلك فقد أهملوا تحصين البلاد التي تسلموا زمامها، فاضمحلت في عهدهم الإسكندرية وأصبحت لا قيمة لها.

وهذا ما بينه فولني في تقريره حين زار مصر قبل حملة نابليون على مصر سنة 1798م/ 1213ه، "كانت بحرية البلاد عبارة عن ثمانية وعشرين مركبا في السويس مسلحة بأسلحة ضعيفة المفعول ولا يعرف ملاحوها كيف يستخدمون تلك الأسلحة"[22] وهكذا كانت مصر ضعيفة عسكريا لا قدرة لها على مقاومة الغزو الأجنبي وظهر هذا الضعف واضحا عندما غزاها نابليون سنة 1798م. وهذا ما أكده الجبرتي، حيث يشير إلى الحالة السياسية التي كانت تسود مصر آنذاك، إذ يرجع أسباب استكانة المصريين للإرهاق إلى الحكم الجائر الذي سلطته الطليعة الحاكمة من المماليك، حيث يقول: "وفي الحالة التي نحن في صددها إذا تقصينا أسباب استكانة المصريين للإرهاق وجدنا أن هذا الشعب الذي تسوده أحوال قاسية أجدر بالشفقة منه بالاحتقار، والسبب في ذلك أن الحالة السياسية في هذه البلاد غيرها في أوربا، فإن آثار الثورات القديمة عندنا ما برحت تتضاءل يوما بعد يوم، حتى تقرب الغرباء الغالبون من الوطنيين المغلوبين على أمرهم، وأصبح الوطنيون مستعبدين على إثر انقلابات حديثة العهد ... فالدولة هنا فئتان فئة الشعب المنتصر التي يحتل أفرادها جميع مناصب السلطة المدنية والعسكرية، وفئة الشعب المغلوب الموزعة بين الطبقات المرؤوسة في المجتمع، والفئة الحاكمة التي تخول لنفسها حق الأثرة في الملكية بقوة الفتح لا ترى في الفئة المحكومة سوى آلة للاستمتاع"[23].

4. مظاهر المقاومة للشعب المصري (انتفاضات الشعب ضد المماليك):

[22] ابن المقفع، ساوريس- (حاشية) تاريخ مصر منذ البداية-المجلد2-الجزء2- تحقيق عبد العزيز جمال الدين- (دط)- مصر- مطبعة مدبولي-2006-ص1146

[23] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص921

لم يرض الشعب المصري بسيطرة المماليك وجورهم على سيادته بل قاوم بكل ما يملك من قوة مادية ومعنوية، والأمثلة على تلك الانتفاضات عديدة تزخر بها كتابات الشيخ عبد الرحمان الجبرتي، والذي يعد أفضل من أرخ لأحداث تلك الفترة وسنذكر بعضها حسب الترتيب الزمني للتدليل على حيوية هذا الشعب وعلى رفضه الخضوع لحاكميه من الظلمة.

وأول تلك الأمثلة ما ذكره الجبرتي عن أحداث سنة 1675م/ 1086هـ، حيث ولي على مصر باشا يدعى أحمد باشا الدفتردار، وكان ظالما شديد الوطأة على الناس، وقد استاء المصريون من حكم ذلك الوالي، وعرفوا بأن له صديقا يدعى عبد الفتاح الشعراوي كان يحرضه على تلك الأفعال فتربصوا به عند نزوله من القلعة وقتلوه ومثلوا به، ولم يكتفوا بذلك بل صعدوا إلى القلعة وطلبوا من الوالي أحمد الدفتر دار أن ينزل من الحكم، فرفض فهددوه بالقتل وبأنه سينال نفس المصير الذي آل إليه صديقه، فآثر التسليم والنزول عند رغبة الشعب، فقبضوا عليه واحتجزوه عندهم إلى أن عيّن السلطان واليا جديدا[24].

وفي سنة 1695م/ 1107هـ، عم البلاد قحط شديد وزادت وطأته على الناس حتى أكلوا الجيف وأوراق الشجر، وصاروا يتخاطفون الخبز من الأسواق ومات بسببها جموع كثيرة.

حدث هذا بينما كانت مخازن الوالي وكبار المماليك مليئة بالمخزون من القمح والشعير فتنكر الأهالي، وتوجهوا إلى الوالي بالقلعة، وصاحوا من الجوع فلم يأبه لأمرهم أحد فرجموه بالأحجار، فركب الوالي وطردهم فنزلوا إلى الرميلة، ونهبوا حواصل الغلة التي بها، ووكالة القمح وحاصل كاتخدا نائب الوالي، وكان مملوءا بالشعير والفول، فتم عزل الوالي الظالم من السلطان وتم استبداله بآخر نزولا عند رغبة الشعب[25].

ومن أحداث عام 1697م/ 1109هـ، يذكر الجبرتي بأن ملتزم دار الضرب (سك النقود) بمصر وهو يهودي يدعى ياسف قد سافر إلى الأستانة لبعض الأعمال، وعندما سأله المسؤولون الأتراك عن إمكان زيادة الضرائب على أهالي مصر أجاب بالإيجاب، فزودوه عند سفره بالفرمانات والأوامر السلطانية بزيادة الضرائب، فلما عاد إلى مصر وقدمها للوالي العثماني وافق عليها.

وعندما سمع الأهالي بذلك توجه وفد منهم إلى المماليك وناقشوهم في الأمر ثم قابلوا الوالي في القلعة فرفض وعنفهم على اعتراضهم على أوامر السلطان فجاوبوا بالمثل وأصروا على تسليمهم ياسفا فأبى وأمام إصرارهم مدهم إياه فقتلوه جزاء ما قدمت يداه[26].

وهناك مثال آخر حدث في يونيو 1785م/ 1200هـ، ويتلخص في أن مدينة الإسكندرية كانت خاضعة لحكم رجلين هما قائد الجند التركي وسمي آغا القلعة والسردار (انظر التعليق رقم: 14).

وقد ترك هذان الرجلان لجنودهما العنان يعيثون في الأرض فسادا، ينهبون الأموال ويعتدون على الحرمات غير آبهين لحرمات الأهالي وشكاويهم، حدث ذات يوم أن قتل أحد الجنود رجلا من أهل المدينة فثار الأهالي ثورة رجل واحد، وقبضوا على السردار وأوسعوه ضربا وتنكيلا ثم أركبوه على حمار عاري الرأس وطافوا به شوارع المدينة بين سخرية الأهالي وضربهم له بالنعال[27].

وهناك مثل آخر يصور غضب هذا الشعب الأبي، يتمثل فيما حدث في يناير 1786م/ 1201هـ حيث قام أحد كبار المماليك ويدعى حسين بك، حفت على رأسه كوكبة من مماليكه وهاجم دار رجل يدعى أحمد سالم الجزار بحي الحسينية، فثار أهل الحي وغضبوا لابن حيهم وتوجهوا

---

[24] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص44

[25] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص49

[26] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص49

[27] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص143

إلى الشيخ أحمد الدردير، وهو عالم جليل من علماء الأزهر وممن اتصفوا بالجرأة والشجاعة والإخلاص لبني وطنهم يشكون له مظالمهم، فغضب لما حدث وشجعهم على الثورة، حيث اتفق معهم على التوجه في صبيحة اليوم التالي إلى دور المماليك لنهبها أسوة بما فعلوا، ولما علم بذلك إبراهيم بك شيخ البلد أفزعه الأمر وأرسل بأحد كبار المماليك إلى الشيخ الدردير يرجوه أن يبعث إليه بثبت بما نهب ليرده إلى صاحبه.

وهناك موقف مشرف كذلك للشيخ أحمد الدردير وقفه عندما كان بطنطا حيث ما تطرق إلى سمعه ما فرضه كاشف (حاكم) البحيرة من مغارم على الناس، وامتدت يده إلى إبل بعض الأعراب فذهب إلى الكاشف بنفسه وخاصمه من فوق ظهر بغلته واشتد عليه في القول والزجر وثار الأهالي لثورته واشتبكوا مع جنود الكاشف في المعركة، فهب على الفور كاشف المنوفية والغربية لزيارة الشيخ الدردير للاعتذار له.

كما قام إبراهيم بك لزيارة الشيخ الدردير والاعتذار له بنفسه بعد عودته للقاهرة[28].

وكذلك تفيدنا أخبار سنة 1795م/ 1210ه، أن نفرا من فلاحي مدينة بلبيس قد ذهبوا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي يشكون مما فرضه محمد بك الألفي أحد أعوان مراد بك على أراضيهم من ضرائب أثقلت كاهلهم فغضب الشيخ لذلك واجتمع بعلماء الأزهر واستقر رأيهم على إغلاق أبواب الأزهر، وحض الناس على إغلاق الأسواق.

وفي اليوم الثاني اجتمع العلماء بالشيخ محمد السادات في داره وتجمع حولهم عدد غفير من الأهالي.

وعندما علم بذلك إبراهيم بك أرسل أحد أعوانه لاستطلاع جلية الأمر، وجرى بينه وبين العلماء نقاش حاد ألهب حماسة الأهالي وخشي مراد بك عاقبة الأمر، فأرسل إلى العلماء يبلغهم بسوء مما ارتكبه شريكه إبراهيم بك وفي نفس الوقت أرسل لهذا الأخير (إبراهيم بك) يحذره من عاقبة الاستهانة بحقوق الأهالي.

ولكن العلماء والأهالي قد ذاقوا ذرعا بتكرار أمثال تلك الحوادث، فاستمروا معتصمين داخل جدران الأزهر، ولم يستجيبوا له إلا بعد حضور الوالي بنفسه إلى دار الشيخ السادات، حيث عقد اجتماعا ضم كبار المماليك والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير، وتناقش المجتمعون فيما يجب أن يكون عليه الحكم، وانتهى الاجتماع بعد أن وقع المماليك على وثيقة حررها قاضي القضاة يتعهدون فيها بإبطال المظالم والسير بين الناس بالعدل، وأن يكفوا عن زيادة الضرائب، وفي هذا الحادث يضرب المصريون أروع الأمثلة في اتحادهم ووحدة كلمتهم والتفافهم حول العلماء وزعمائهم المخلصين[29].

كانت مصر في العصر العثماني نهبا مقسما بين الباشا التركي، وقواد حاميته، وأمراء المماليك. أما حقوق الشعب فكانت مضيعة، لم يعتن بها هؤلاء الحكام، ولم يكن يحد من سلطان هؤلاء الحكام غير سلطان العلماء، أصحاب السلطان الروحي، الذين كانوا في نظر الحاكمين والمحكومين رمزا للشرع والقانون السماوي، الذي يحكم بمقتضاه حكام تلك البلاد الإسلامية؛ حيث عقد العلماء نوعا من الزعامة الاختيارية ارتضاه الحكام والمحكومون جميعا، فكان الشعب يشكو لهم ظلم الحكام، وكان الحكام يستمعون دائما لهذا النصح، ويستجيبون لهذه الوساطة (شيال، 2001: 23)[30].

5. خاتمة:

[28] الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص921

[29]الجبرتي، عبد الرحمان بن حسن الجبرتي، (دتنفس المرجع –ص390

[30]شيال، جمال الدين-نفس المرجع-2001-ص23.

مما سبق نخلص إلى:

– إن الحكم العثماني في مصر كان جائراً منذ بدايته إلى نهايته.

– كانت مصر في حالة فوضى واضطراب وعدم استقرار خاصة خلال القرن 12هـ/18م حيث سيطر عليها المماليك وأسرهم المتنفذة كالقاسمية والفقارية والغازدغلية مما أدى إلى حروب أهلية وحركات انفصالية، كفتنة افرنج أحمد 1708–1711 وعلي بك الكبير 1776–1786، مما أدى إلى إرسال حملة حسن باشا سنة 1782–1788.

– أن الشعب المصري بشعب مقاوم لم يرضَ الخضوع للحكم الأجنبي. وكان قادة مقاومته علماء أجلاء وشيوخ أشاوس من أمثال الشيخ الدردير والشيخ الشرقاوي والشيخ السادات.

– إن الصراع بين الأسر المملوكية والقادة الأتراك وبعض الفئات من الشعب المصري سهل على الاستعمار الأوروبي احتلال مصر من طرف فرنسا بقيادة نابليون سنة 1798 وبريطانيا سنة 1801.

. التعليقات والشروح:

1– قائمقام: أي قيامة مقام، وظيفة قيامة مقام كان يشغلها الشخص الذي يتولى عمل الباشا في فترة خلو منصب الباشوية سواء بعزل الباشا أو بوفاته. (الجبرتي، 1987: 45)

2– ولد علي بك الكبير في سنة 1728م في بلاد الإباضة بالقوقاز، كان والده أحد قساوسة الكنيسة اليونانية، أسر في إحدى الغابات وجيء به إلى الإسكندرية حيث بيع كمملوك لمديري جمركها في سنة 1743م، حيث قدماه هدية إلى إبراهيم بك جاويش الانكشارية، وبد أبعد ذلك يتعلم ويتكون كبقية المملوكين ويقال أن تفوقه على رفاقه في ركوب الخيل وفي اللعب بالجريد، وضرب السيف والطعن بالحربة واستخدام الأسلحة النارية حتى صار يسمى ب(جن علي) وعمره اثنان وعشرون عاما، وكان ذلك في سنة 1749م ولما توفي أستاذه إبراهيم كاخيا 1754م تقلد الصنجعية باسم علي بك مير اللواغاردغلي. (جلال يحيى، دت: 235)

3– أوجاق، لقب لأصناف جند السلطنة الذين تشكلت منهم القوات العثمانية البرية والبحرية أو اصطلاح يقصد به الجيش العثماني، وبحسب التشكيلات العسكرية العثمانية المذكورة في قانون نامة فإنّ هذا الجيش كان مقسما إلى7 أوجاق، وكل أوجاق له وظيفته الخاصة. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 53، 54)

4– سرّاجا: السراج في اللغة – المصباح المضيء وفي الاصطلاح أطلق هذا الاسم بعد أن أضيف إليه بعض الأسماء المتميزة ليصبح لقبا من الألقاب التي عرف بها كبار أعيان الدولة من الوزراء والعلماء مثل سراج الدولة وسراج الدين. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 241)

5– كتخدا، لفظ تركي فارسي أصله كدخدا معناه رب الدار أصبح فيما بعد حاكم أو عمدة أطلق على أمراء الأقاليم في الدويلات الإسلامية وهو المعاون والمساعد للموظف الكبير في الدولة، كان للصدر الأعظم معاون يعرف كتخدا بك أفندي. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 363)

6– باش أودة باشي، رتبة عسكرية في الجيش العثماني تعادل رتبة ملازم عند مصطلح القرن 20، يترأس حاملها مجموعة من جنود الانكشارية يستقرون في أوظة أي غرفة. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 56)

7- السباهية، جاءت كلمة أسباه بمعنى جيش أو قطعة وهم صنف من العسكر يطلق عليهم فرسان الجيش. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 28)

8- أوجاقات عزبان، العزبان (العزب، كان هذا لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات فمنهم كبحارة (ترسانة الإسكندرية والسويس)، وكان من رجاله أمين البحرين، كما كانت لهم اختصاصات بوليسية تتألف منهم مراكز البوليس. (ساوريس ابن المقفع، 2006: 1129)

9- المتفرقة، طائفة من العسكر مهمتهم التأهب الدائم أثناء الحرب أوعند تحرك الركب الهيمايوني بمرافقته أينما رحل، إضافة إلى مرافقة الوزراء وأصحاب المناصب. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 387)

10- الجاوشية، وحدة عسكرية يقوم أفرادها بمهام الشرطة العسكرية ينفذون العقوبات البدنية بحق المخالفين من عناصر الانكشارية يرأسها جاويش برتبة رقيب. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 119)

11- الدفتردار، الدفترداري، هي دار المال، الدفتردار معناه أمين المال، وتكمن وظيفته في سجلات الحسابات وقيود واردات الخزينة، كان بمثابة وزير المالية في عصرنا الحالي. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 82، 83)

12- أبو الذهب: تابع علي بك الشهير اشتراه أستاذه في سنة خمس وسبعين فأقام مع أولاد الخزنة أياما قليلة وكان إذ ذاك إسماعيل بك خزندارا، فلما أمّر إسماعيل بك قلبه الخازندارية مكانه وخرج مع مخدومه إلى الحج ورجع أوائل سنة 1178ه، تأمّر في تلك السنة وتقلد الصنجعية، وعرف باسم "أبي الذهب" ويرجع سبب تلقبه بذلك أنه لما لبس الخلعة بالقلعة صار يفرق البقاشيش ذهبا وفي حال ركبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء والجعيدية حتى دخل إلى منزله فعرف بذلك لأنه لم يتقدم نظيره لغيره ممن تقلد الأمريات واشتهر عنه هذا اللقب وشاع وسمع عن نفسه شهرته لذلك فكان لا يضع في جيبه إلا الذهب ولا يعطي إلا الذهب ويقول: "أنا أبو الذهب فلا أملك إلا الذهب" (الجبرتي، 1987: 651، 655)

13- الصنجقية: وحدة إدارية أصغر من الولاية، استخدمت في العصر العثماني، يحكمها موظف أطلق عليه اسم صنجق بك أي أمير الصنجقية. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 295)

14- السردار، لفظ فارسي مركب من سر بمعنى رأس ودار بمعنى صاحب لقب بقائد الجيش أو كبير الجيش، دخل العربية في العهدين الأسيوي والمملوكي، بقي اللفظ ليدل على مرتبة عسكرية شاويش في أيامنا، مرتبة رئيس أركان. (عبد الكريم الخطيب، 1997: 243)